الفصل العشرون
«الغشاوة في عيني»

عندما رأينا الخيام الخلفية في الأودية بين الهضاب المتماوجة على قمة جرف كانت الشمس قد بزغت. وبعض قطعان الجمال بدأت بالذهاب إلى المراعي. أوقفت السيارة ونظرنا إلى المنظر الهادئ الممتد أمامنا. لا يمكن أن يكون العالم أجمل مما كان في ذلك الصباح.

ظهرعلى وجه فارس نفس الضوء الهادئ الذي يمجّد الأرض، وبرقت عيناه ببريق ضوء جديد مما جعلني سعيداً بإحضاره إلى بيته. اليوم ينظر فارس إلى كل شيء نظرة من يوشك على الوداع. إنه يعجب اليوم مما لم يكد يلاحظه في السابق كما لو أنه يراه للمرة الأولى. سألني فارس ما إذا كنت أعتقد أن الحياة «الأخرى» مماثلة لهذه الحياة فأجبته: «بالتأكيد», نظر إلى يديه اللتين نفدت منهما الدماء وقال: «في يوم من الأيام كانتا قويتين أما الآن فلم تبق فيهما أية قوة. إنهما صفراوان كالبذور اليانعة وسيطمرهما التراب». نظر إلى وجهي وقال بجدية وبصوت منخفض «لنذهب إلى تويما!».

عندما مررنا في ذلك الجزء من القبيلة الذي ينتمي إليه والد فارس تحلّق حول السيارة حشد واجم ورافقنا بصمت إلى منزل أبي فارس. جرّ فارس نفسه

من السيارة بمساعدتي وبرأس مرفوع لأنه لا يريد أن يظهر أي ضعف. لكن شحوب وجهه المميت فضح حالته الحزينة، كما أن ضمادات مناحي والثقوب في السيارة أوحت بما جرى. وعلى الرغم من أن المئات من الكبار والأطفال التفوا حولنا ورمقونا بنظرات الاستفسار والقلق فلم ينطق أحد منهم بأي سؤال، حتى الكلاب التي تفرح عادة ويعلو نباحها لدى عودة أية مجموعة إلى المضارب بقيت الآن صامتة، واكتفت بشم السيارة الملطخة بالدماء وبإرخاء آذانها وانسلّت كما لو أن أحداً قد ضربها.

علم والد فارس بالخبر المأساوي الذي تطاير من خيمة إلى خيمة وأتى متثاقلاً وجلس بجانب ولده المصاب وبذل الجهود المذهلة للحفاظ على مظهر التمالك الذي تتطلبه الأعراف البدوية. ولم يسأل عن أحوال ولده إلا بعد أن دارت القهوة على الجميع، حتى بعد ذلك لم يزد عن التساؤل التقليدي: «بمشيئة الله يا فارس ستبقى معنا». ورد فارس «يا والدي أنا حيّ والحمد لله! وهناك سلام!» وسأل نايف وبعض الحاضرين بدهشة واضحة: «سلام؟».

ـ «أقرّ ابن مهيد السلام في مجلس شيوخه ونقل قطعانه بالأمس إلى المراعي الشمالية».

ـ «السلام! السلام!» وجلجلت صرخة السلام في الخيمة وانقلبت في الخارج إلى كورس. «هناك سلام بإمكاننا أن نتقدم!».

خلف فارس ركعت أخته الصغيرة وأبناء طراد بن صطام الصغار الذين تساقطت دموعهم على وجوههم ولكنهم عضّوا على شفاههم. والآن تحدثنا عن مغامرتنا التي صاحبتها تعليقات الحاضرين. وعمل فارس (الذي خيّم على ملامحه الموت) بتمالك لا يصدق على إخفاء آلامه والمشاركة بالحديث الذي استمر بلا انقطاع. وشمل الحديث كل تفاصيل القتال ببرود شديد كما تم بحث مصير فارس المحتوم بما يبدو للعالم الغربي أنه تجاهل ظالم لمشاعره.

استمر هذا الحديث لمدة ساعتين، وعندما نهض الحضور في النهاية حاول فارس أن ينهض، لكن نزيفاً حاداً رماه على مضجعه وأصابه بالإغماء. وتم استدعاء أمه. عندما عاد إليه وعيه كانت أمه تركع بجانبه ويداه في يديها. وبإمكان المرء أن يرى أنها تتعطش لنظرة منه. وهمست: «يا بني!» وقبلته والدموع تنهمر من عينيها.

وعندما رأتها عينا فارس المتنقلة وقد هزّها الحزن ارتجف وجهه وقال مستنداً على مرفقه: «من هذه المرأة؟ أبعدوها عني فإني لا أعرفها!» وتبادل العبيد النظرات بارتياب، فصاح فيهم فارس «خذوها إلى الخارج».عندها أخذت المرأة المسكينة من يدها وقلت لها بعض كلمات المواساة وأخرجتها من الخيمة. ولكنها انتزعت نفسها مني عند مدخل الخيمة وعادت مسرعة ورمت بنفسها عند قدمي فارس، وجمعت الرمل من الأرض بكلتا يديها وصبته على رأسها ودعت الله أن يحفظ لها ولدها. ولمس فارس رأسها المطرق وقال لها: «اذهبي يا أماه! سيمنحك الله القوة فأنا أريد أن تحيط بي الوجوه الفرحة. لا. هل عشت لكي أخاف الموت؟» وأشار إليّ لأبعد أمه.

عندما خرجت من خيمة المرأة وصل راكب على حصان أسمر يجري من مخيّم آخر في الطرف المنخفض من الوادي فانتظرت. إنها تويما كما قدّرت.

كان جسمها كله يرتعش وصوتها تخنقه الدموع. حاولت تهدئتها وأخبرتها بما جرى بين فارس وأمه. عندها تمالكت نفسها وقبّلت يديَّ ووضعتهما على عينيها المبللّتين وسألت: «ماذا سأفعل يا عزيز؟».

ـ اجعلي ساعاته الأخيرة بهيجة يا تويما. أظهري له سرورك وهذا هو كل شيء».

حاولت أن تبتسم وقالت متوسلة: «اذهب أمامي» ولكن الدموع انهمرت على خدّيها. وكررت قائلة: «اذهب أمامي! أريد أولاً أن أزيل الغشاوة عن عيني».

تقرر أن يتم زواج فارس وتويما في ذلك المساء. كان فارس يسأل عن تويما بنزق متزايد. وعندما زففتُ إليه الأخبار السارة عن وصول تويما وأنها ستكون عنده في أية لحظة رجاني أن يرى والدته أولاً وللمرة الثانية. ذهبت بنفسي إلى قسم النساء لإحضارها. حوّلها حزنها إلى مخلوق ضعيف كالشبح: مشت بخطوات متثاقلة ولكنها تمالكت نفسها وركعت بجانب مضجع فارس. وضع ذراعيه حول أمه الحبيبة وضمها إلى صدره. ظهرت الدموع في عينيه وبدت أنها تخفف آلام أمه. جلست بجانب ولدها مستقيمة كالسهم، ورتبت ثيابه ووسائده وأعادت ضفر شعره الكثيف الطويل، وقالت بضع كلمات مازحة حوله وحول تويما. وبعد الانتهاء من ذلك غادرت ثانية متكئة على ذراعي وقالت لولدها من عتبة الخيمة بأنها سترسل تويما.

كنا قد جهزنا مضجعاً عريضاً مريحاً لفارس وعزلناه بالستائر ولكن إحداها فتحت دائماً حسب اتجاه الريح حتى يستطيع فارس أن ينظر إلى الخارج مستلقياً والجزء الأعلى من جسمه منتصباً. وفجأة غمرت وجهه بسمة من السعادة ممزوجة ببعض الدهشة عندما دخلت تويما بعد أن كانت توقفت على عتبة الخيمة وفي حلقها صرخة مختنقة، وعلى وجهها نظرة من الرعب لحالة حبيبها اليائسة. ولكنها سرعان ما سيطرت على نفسها مما جعل من العسير ملاحظة انفعالها ولم يرَ فارس سوى وجه ضاحك عندما أتت إلى جانبه. وخشخشت خلاخيلها برقة ثم صاحت: «فارس فارس يا حبيبي!» وركعت ووضعت ذراعيها حول عنقه وأخذت تلمس وجهه وجسده. وعندما قبّلته لاحظت أن فمها قد تلطخ بدمه ولكنها أبقت شفتيها ملتصقتين بشفتيه لكي لا يرى الدم المتساقط من فمه على عنقها.

وقبل مغيب الشمس بقليل بدأت الخيمة تمتلئ بأقارب فارس وأصدقائه الذين حضروا شهوداً على زفافه. وفي هذه الأثناء عادت تويما إلى بيتها في جانب الوادي المنخفض حيث انشغلت صديقاتها باختيار أجمل الهوادج وبدأت بتزيينه لهذه المناسبة. رفع الهودج بمظلة الزواج المزركشة إلى ظهر جمل مغطى

بشداد فاخر قاده العبيد إلى خيمة تويما. هناك صعدت العروس إلى مقعدها العالي على الهودج ورافقتها صديقاتها.

أناخت تويما جملها، أما قسم النساء فقد تم ترتيبه لكي يرى فارس كل شيء من مضجعه، فحيتها أم فارس وأخوته وعدد كبير من العبيد واستقبلن العروس بالمراسم المعتادة. وعلى مقربة منهم أمسك مناحي بفرس بيضاء عجوز من رسنها. وتدعى هذه الفرس «عودة، أو الكحيلة العجوز البكر» لأنها لم تتزاوج أبداً وكل الرولة يحبونها ويبجلونها. عندما كانت في سن الثالثة أهديت إلى مشاعل بمناسبة ولادة الأمير فواز. وهكذا فإن الفرس تبلغ من العمر ٢٧ سنة وعلى جسدها آثار الغزوات الكثيرة. على ظهر الفرس وضع جلد خروف أبيض «جلد البكارة» الذي تجلبه العروس البدوية إلى عريسها كهدية زفاف حسب العادات القديمة.

واختفت تويما إلى قسم الحريم لكي تلبسها أم فارس وأخواته ثوب الزفاف. عندما ظهرت ثانية بدت متألقة في ثوب من الكشمير الفاخر الأحمر والأخضر (وقد ارتدته والدة فارس يوم زفافها) وعباءة مقصبة بالذهب تتدلى من كتفيها. اتخذت مكانها بجانب الفرس البيضاء وتقدم بدوي عجوز وبين ذراعيه حمل صغير لا يزيد عمره عن الأسبوع الواحد، فوضع الحمل عند قدميها وذبحه كضحية بهذه المناسبة. وقبعت[1] (عودة) وتراجعت عند رؤية الدم، لكن العجوز أمسك بالرسن وغمس أصابعه بدم الحمل ورسم وسم الرولة على عنق الفرس. وبعد مسح أصابعه المغطاة بالدم بلحيته البيضاء. أعطى الحمل المذبوح ــ حسب العادة البدوية ـ إلى فتاة يتيمة اختارها أحد الشيوخ.

ودون قبول المساعدة التي قدمها مناحي، نظراً لثياب تويما المتجرجرة، قفزت بخفة على ظهر الفرس البيضاء التي مشت بخطى وئيدة في كل المخيم،

---

(١) قبعت: من القبع وهو صوت الفرس من منخره إلى حلقه إذا رأى ما يزعجه.

وإلى جانبها ركب العبد الضخم الذي يحمل فوق رأسها سيف جندة وجدوة العظيم ويغني بطريقة فروسية.

«انظروا إلى عروس فارس! انظروا إلى العذارء!

من أجل عيني تويما وقطعان عالية.

من أجل فارسنا الأسمر وزوجته»

وهكذا سار الموكب في المخيم الذي اصطف كل سكانه أمام خيامهم السوداء. وعندما مرّت العروس على فرسها البيضاء حيّاها الجميع بالزغاريد البهيجة على الرغم من أن قلوبهم كانت مثقلة بالحزن.

ولدى عودتها إلىخيمة فارس ترجلت وأخذت جلد الخروف الأبيض عن ظهر الفرس وفرشته علىفراش العرس ثم اختفت في جناح الحريم حتى يستدعيها فارس.

هكذا تمت حفلة الزفاف. أما الذين انتظروا مع فارس لرؤية وصول العروس فقد نهضوا جميعاً لننصرف.

بدأت النجوم تتلألأ فوق الهضاب عندما خرجت من الخيمة، وذابت الخيام السود في الوادي في ظلمة الليل الحالكة، وعادت القطعان أدراجها تظهر ملامحها لدى عبور الأراضي العالية، ثم تختفي عن الأنظار في المنخفضات.

وعندما غادر الأصدقاء الخيمة ودّعوا فارساً صائحين: «النشاط! الله معك!». خلف الستار الذي فصل جناح النساء كانت تويما تنتظر رحيلنا. وعندما تم الوداع الأخير خلعت عمود الخيمة الأوسط من مكانه ووضعته على الأرض. هبط السقف فتدلّت الخيمة في الوسط حتى لمست تقريباً مضجع فارس، ولكن الأعمدة الجانبية والحبال المشدودة أبقت الخيمة قائمة بمستوى ارتفاع الرجل. تلك هي الإشارة المعتادة للمارة بأن العروس مع عريسها.

في تلك الليلة مات فارس. عندما أتينا إلىخيمته في الصباح وجدنا تويما فاقدة الوعي بجانب زوجها الميت. وعلى مرمى من الخيمة انشغل الرجال بحفر قبر له.

عندما أودعنا أخانا العزيز ممدداً على الجلد الأبيض في باطن الصحراء ووقفت النساء على مسافة منا وهن ينظرن وينتحبن علىالميت وشعورهن مشعثة، وقد رسمن على وجوههن علامات الحزن برماد المواقد. وقفت تويما صامتة بين النسوة وعباءة وبر الجمال تتدلى من كتفيها ورأسها مرفوع وعيناها مليئة بالدموع وعلى وجهها نظرة من الألم الذي يفوق الوصف.

ومرة أخرى أشرقت الشمس وغمرت بأشعتها الأرض. وهبطت أعمدة الخيام وبدأ الرولة بالرحيل من جديد.... ووطأ الأحياء فوق الأموات عابرين إلى الصباح الباكر والمراعي الجديدة والحياة الجديدة.

ومرة أخرى ركبت (**سادها**) إلى الكومة حيث دفنا فارس ــ تلك الكومة التي أصبحت من المعالم المنعزلة الضئيلة في الصحراء المترامية الأطراف. ولدى اقترابي انسلّ الكلب الذي كان يقف فوق القبر انتصبت باقة من ريش النعام الأبيض بين الأحجار السود الثلاثة التي شكلت في الليلة السابقة موقد تويما، كان ذلك وداعها الأخير لحبيبها، هبت الريح فكسرت «زهرة» من هذه الباقة التي لا تذبل ورمتها على الأرض. ترجلت عن فرسي لألتقط هذه الريشة البيضاء واحتفظ بها ذكرى لصديقي الراحل.

ركبت الفرس ورحلت ولكني توقفت ثانية وتطلعت إلى الورا ء فوجدت الكلب قد عاد إلى القبر وأخذ يدور ويدور حول القبر قبل الجلوس والتقوقع كالنائم. إنه حزين على سيده الراحل. لم يهتم به أحد، ولم يبحث عنه أحد، فأين يجب أن يكون إلا هنا مع سيده العزيز.

كنت على وشك الرحيل عندما لمحت راكباً يتجه نحوي ــ بدوي على فرس شقراء محجلة بالبياض انفصل لتوه عن مجموعة القثب والجمال المحمّلة وأتى إليّ بسرعة هائلة.

إنها تويما

وتوقفت على مقربة من المكان الذي انتظرتها فيه. أخذ حصانها يقبع بنزق. وقالت لي رافعة يدها «سلام!» فأجبتها «سلام تويما!» وتدفقت الدموع من عيني. ثم صرخت «شوشان!». عندها نهض الكلب عن القبر واتجه نحوها ببطء، وعلى مضض، ثم توقف وأدار رأسه فصاحت ثانية «شوشان»: وعندما ابتعدت تبعها الكلب.

تابعت الرولة طريقها والأرض مغطاة بجمالهم. خلال بضعة أيام أصبحت تدمر محاطة بالعواصف. فيوماً بعد يوم وبدون توقف وصلت قطعان جديدة من الجمال إلى الأرض **اليباب** لتتوقف عند سفوح الهضاب، وتشرب حتى ترتوي. هنا يخرج الماء الكبريتي العذب من الهضاب ليتحول إلى نهر صاف يتفرع إلىمئة جدول في السهل والبساتين الصغيرة المحيطة بالمدينة القديمة.

في وسط الرولة الراحلين استأنفت السير مع الأمير فواز بجانب أبي الدهور وهو شعار القبيلة المقدس، ولكنه بدا الآن مختلفاً بدون حرس عسكري، وبدلاً من تلك الهوادج التي تحتوي زوجات وأطفال بعض الزعماء، الآن لا نجد فارساً بين الشباب يجري معهم على ظهور خيولهم وحوله كلاب الصيد تنبح، كما فتشت عبثاً عن إلهة الحرب الشابة.

وصلت إلىمسامعنا أنغام أغاني الرعاة القديمة عندما توغلنا في المراعي الجميلة التي ازداد غناها بازدياد توغلنا.

لن أنسى ما حييت الصورة السعيدة للقبيلة المبتهجة وقطعانها الراضية ترعى الأعشاب الخضراء والنباتات النامية. فآلاف الجمال جرجرت نفسها بجهد يائس حتى آخر رمق فيها. ثم ماتت في الطريق بينما الأوفر حظّاً منها تتجول في المراعي الخصبة التي انقذتها من الموت.

مرت سنتان تقريباً وكاد الجميع ينسون مصاعب ذلك الربيع. ذهبت إلى الرولة مرتين في تلك الأثناء، ولكن في زيارتي الثالثة فقط وجدت نفسي في مخيم

فارس بن نايف الشمري لأن العشائر تتفرق في الفصل الماطر، وتتجول أحياناً مئات الأميال عن بعضها. وليس بالمسألة السهلة إيجاد من تبحث عنه. لدى وصولي رحّب بي أبناء طراد بن صطّام الذين جاورت خيامهم منازل شمر. وبعد فترة عاد والد فارس إلى البيت واحتفلنا بلقائنا الجديد.

في زاوية قسم الحريم من الخيمة ظهر صبي بدوي صغير يرمقنا ــ نحن القادمون الجدد ــ بنظرات فضولية خجولة. كان في بدء مشيته مما اضطره للتمسك بطرف ستار الخيمة البالي وصاح صوت نسائي من الداخل: «منور!» إنه صوت تويما وهذا إذن ابن فارس. خرجتْ وأخذت الولد من يده متضاحكة وأعادته إلىقسم النساء. عندها ناديتها باسمها. استدارت بدهشة ورفعت يدها تحييني بالسلام ثم انحنت وهمست في أذن الطفل. أشار الصبي نحوي ونظر في وجه أمه التي أومأت برأسها مشجعة وعندها تهادى نحوي بذراعين ممدوتين. عندما أمسكت به وضممته إلى صدري ضحكت ولكن عيني امتلأتا بالدموع. وأخيراً صاحت تويما بابتهاج. «عزيز!». بعد ذلك بقيت ساكتة مندهشة لرؤيتي ثانية. وبإيماءة من عمّها جلست على شداد جمل بجانبنا. صافحتني خجلة برؤوس أصابعها، رأيت في عينيها السوداوين أحزان الذكرى. منذ موت فارس انتمت كلية إلى عائلة ابن نايف التي عاملتها كابنة وأخت.

ضمت الصغير إلى صدرها بحنو، أخذت تداعبه والسعادة بادية على الأم وطفلها. وقالت تويما: «في المساء فارقني الحبيب ولكنه عاد إليّ في الصباح». وقلت لنفسي: «الصباح ـ إنها الكلمة التي قالها فارس وهو يودعها ـ الصباح: أيها الصباح المصون ـ أيتها لعروس البكر!».

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ركبت مع أبي فارس إلى بعض المرتفعات. وجلت بنظري فوق الحماد حيث كانت خيام الرولة وجمالها ترحل نحو الجنوب وشعرت بأيد خفية تحمل أصدقائي إلى البرّية. وتساءل الزعيم الشمري: «أليست حياة الإنسان كالخيمة وسكانها؟ ويوماً ما يرحل السكان وتصبح الخيمة مهجورة كما يقول امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

هذا الربيع أعاد بشدة إلى ذاكر تي ذلك الربيع الآخر الذي كان فيه فارس مع تويما وبدا لي الآن كالحلم. وتحرك في داخلي (كما تحرك في داخل صديق عظيم آخر للبدو) الأمل اللاهب في أن يكون دائماً هناك حيّز كاف على الأرض لأصدقائي البدو. وعندما تنقلت عيناي بين الأرض والسماء والهضاب والأفق البعيدة، أصبح الفضاء غير المحدود مليئاً بالذكريات التي أعدها أجمل شيء في حياتي على الرغم من الطبيعة الحزينة لذاك **الفضاء**.

* * *

obeikandl.com